الحلقة الحادية والثلاثون

ليوبولد سنجور

في إبريل من عام ١٩٥٥م.. تنادى زعماء «الحرية» و«الاستقلال» في كل من آسيا وأفريقيا، الذين استطاعوا (الخلاص) من ربقة (الاستعمار البريطاني) في الهند كـ (نهرو).. وفي مصر كـ (عبدالناصر)، ومن (الاستعمار الهولندي) في أندونيسيا كـ(سوكارنو).. إلى لقاء يجمعهم - بدعوة من الرئيس أحمد سوكارنو - في جزيرة (باندونج) الأندونيسية الجميلة الساحرة، لبحث وسائل التعاون فيما بينهم من أجل: تخليص دول وشعوب القارتين من الاستعمار البريطاني والفرنسي أو الهولندي أو الإيطالي أو البرتغالي أو الأسباني أو الألماني أو البلجيكي.. الذي كانت سحابته السوداء تغطي معظم دول القارتين الآسيوية والأفريقية إلى جانب معظم دول أمريكا اللاتينية، وقد دعوا إلى جانبهم الزعيمين.. الآسيوي الصيني: «شوين لاي»، والأوروبي اليوغوسلافي «جوزيف بروز تيتو».. لدورهما التحرري في رفع الهيمنة السوفييتية عنهما.. ليشاركا في ذلك اللقاء التحرري التاريخي الأول، الذي اختار له الرئيس سوكارنو - صاحب أحدث استقلال ١٩٤٩م - عنواناً سياسياً.. رائعاً.. خلاقاً: (الأمم الصامتة والمقهورة.. تتكلم)..؟

وقد تكلمت الأمم الصامتة، وتفاعلت شعوبها مع دعوة الحرية والتحرر التي بثها الزعماء الوطنيون الخمسة.. لتخرج من ثنايا لقاءاتهم الفوارة: (منظمة التعاون الأفروآسيوي).. التي قادت دول وشعوب القارتين إلى الحرية والتحرر، وهي تفرز زعاماتها التاريخية الآسيوية الأفريقية التي لا تنسى.. على الجانبين: من (نوردوم سيهانوك) الكمبودي إلى (هوشي من) الفيتنامي.. ومن (كوامي نكروما) الغاني إلى (أحمد سيكوتوري) الغيني إلى (جوموكينياتا) الكيني إلى (جوليوس نيريري) التانزاني.. إلى شهيد الحرية الزعيم الكونغولي (باتريس لومومبا).. لتقوم في أعقابها (كتلة عدم الانحياز)، التي ظلت منذ انطلاقتها.. المرجحة لقرارات الجمعية العمومية للأمم المتحدة، والتي أخذت تسعى لـ (استرضائها) فيما بعد كل دول العالم.. للفوز بصوتها المرجح في محفلها!.

* * *

لقد كان حرياً.. بأن يكون هذا الأديب المثقف والشاعر الوطني السنغالي (سينغور) سادس أولئك الزعماء الخمسة، لولا (عضويته) في الجمعية التأسيسية الفرنسية، التي شده إليها وإلى الحياة السياسية عموماً - عام ١٩٤٥م - صديقه (لامين غواي).. أول محام أسود، وأول رئيس لبلدية (داكار) التي كانت تلعب دور (العاصمة) لما كان يسمى.. بـ (دول أفريقيا الغربية الفرنسية)، ولولا انخراطه - اضطراراً بأكثر منه اختياراً - في كتائب الجيش الفرنسي في مطالع الحرب العالمية الثانية وحتى أسره في معسكرات الجيش الألماني.. للذود عن (فرنسا) التي دعا زعماء (باندونج)

الخمسة إلى التحرر منها ومن بريطانيا واستعمارهما القديم والطويل في القارتين الآسيوية والأفريقية، رغم أن (جينات) الحرية والتحرر التي حملها «سينغور» مبكراً كانت تصب في ذات (النهر).. نهر الحرية والتحرر. فمع أول وظيفة يتقلدها - معلم لغات - بعد حصوله على شهادتي (الإجراجسيون) و(ليسانس الآداب).. من مدرسة (الليسيه) بداكار فـ (السوربون) من باريس، كان يعلن عبر ديوانه الأول (أناشيد الظل): (أن همه - كـ (شاعر) قبل «المعلم» - ليس تعليم اللغة الفرنسية للسنغاليين.. ولكن في (إيقاظ شعبه على المستقبل الباهر)!؟ وهو يؤكد قائلاً: (بهجتي أن أخلق صوراً أعذِّبه بها)!! ليس حباً في العذاب لذاته، أو لـ (سادية) ينكرها، ولم تعرفها حياته.. ولكن من أجل أن يفجر غضب أبناء شعبه بحثاً عن حريته المسلوبة كـ (أسود منبوذ مهمل.. في آخر صفوف البشرية: يباع ويشترى)!! وقد اكتمل له ذلك في صرخته الشعرية الرائعة التي أطلقها في طلب الحرية والمساواة مع (الأبيض): مستعمره وجلاده.. عندما قال، وكأروع وأجمل ما يكون عليه القول في قصيدته (وُلدت أسود اللون) بديوانه الثالث (أثيوبيات) الذي صدر له عام ١٩٥٨م:

(ولدت أسود اللون،
كبُرتُ أسود اللون،
ينتابني خوف.. أسود اللون،
وحين أموت.. أموت أسود اللون.

* * *

وأنت يا صاح.. يا أبيض اللون!
ولدت أزهر اللون،
تكبُر أبيض اللون،
تجلس في الشمس أحمر اللون،
في البرد أزرق اللون،
ينتابك خوف، أصفر اللون،
وحين تموت،
تموت أشحب اللون
وأنت لا تكف.. تدعوني بالملون!)

* * *

لقد كانت أزمة الفتى الأفريقي (سينغور).. المكلوم بـ (سواده)، ونظرة (الأبيض) له.. هي في ذلك التناقض القدري الحاد الذي وجد نفسه في أتونه بين: (ولادته السوداء) في قرية (جوال) للصيادين في جنوب (داكار) عام ١٩٠٦م.. و(حياته البيضاء) في فرنسا منذ أن وصل إلى عاصمتها (باريس).. مدينة النور والحرية وهو في العشرين من عمره، ليلتحق بـ (جامعة السوربون).. ولكنه تركها والتحق بمدرسة (لوي لوغران).. استعداداً للدراسات العليا بعد عام، حيث تعرف هناك على (الشاب: جورج بومبيدو)، الذي سيصبح ثاني رؤساء الجمهورية الفرنسية الرابعة خلفاً لمؤسسها الزعيم الفرنسي التاريخي «شارل ديجول»، كما تعرف وفي ذات المرحلة على صديقه الطالب المارتينيكي الكاريبي (إيمي سيزار).. ليصدرا معاً - عام ١٩٣٤م في باريس - صحيفة (الطالب

الأسود)!! التي التزمت الدفاع عن الزنوج و(الزنوجة) أي الزنجية التي ابتكر لفظتها (سيزار).. وغدا (سينغور) فيلسوفها، المنظر لها حتى اتهم من قبل الأديب والمفكر والفيلسوف الفرنسي الأشهر (سارتر).. بمحاربة (العنصرية البيضاء) بـ (عنصرية سوداء)!!، إلاأن سارتر سرعان ما عاد عن ذلك وهو يتأمل بوعيه الإنساني الراشد عمق معاناة الأفريقي (الأسود) عبر سنين وقرون ذله، واضطهاده حتى تقدمت على (مكانته) الآدمية.. القطط والكلاب والحيوانات الأليفة، وهو يرى بعينيه وبحضوره الأدبي العريض: عشق (سينغور) لـ (فرنسا) وآدابها وأدبائها.. وهيامه بثقافتها ومثقفيها.. وجنونه بلغتها الموسيقية الساحرة، التي جعلت منه أستاذاً من أساتذتها ومعلماً من معلميها في المدارس الباريسية نفسها، وهو يتذكر «رسالة» سينغور الباذخة التي نال بها درجة (الماجستير) عام ١٩٣٢م عن أعمال بودلير الشعرية (الإغرابية عند بودلير).. ليكتب له عن قناعة به وإيمان بشاعريته: مقدمة ديوانه الثاني (قربان أسود) الذي صدر لـ (سينغور) عام ١٩٤٨م.

* * *

عندما عاد (سينغور) من (باريس) بعد اثنتي عشر عاماً من الإقامة المتصلة بها – عام ١٩٣٧م – إلا من زيارات قليلة متقطعة إلى (داكار).. دعته الغرفة التجارية السنغالية لإلقاء محاضرة بها، ففاجأ حضورها من الفرنسيين الذين كانوا يتصدرون مشهد الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في (داكار)، ويديرون دولاب الحياة التجارية والصناعية في السنغال كلها من تجارة

(الفستق) إلى صناعة (الصمغ).. بمستوى طرحه الرفيع، ولغته الفرنسية الباريسية الراقية.. التي لم يكن أحد منهم يتوقعها، بل ولم يتوقع حضورتلك المحاضرة.. أن محاضرهم، الذي كان يتحدث إليهم يحمل شهادتي (الإجراجسيون) و(ليسانس الآداب) كأول أفريقي أسود يحمل المؤهلين معاً.. إلا عند تقديمه في تلك المحاضرة.. ليتم تعيينه مدرساً للغة الفرنسية في مدرسة (ليسيه مارسلان) بإحدى ضواحي (باريس).. وكأنه (فرنسي) وليس سنغالياً يصح أن يستفيد منه ومن إمكانياته وقدراته وطنه الأم (السنغال)، ليعود إلى باريس مجدداً.. وليقود مع صديقه الشاعر المارتينيكي سيزر (الانتفاضة السوداء) للنضال ضد العنصرية، ومساعدة (العالم الأسود).. في الانعتاق من العبودية والاسترقاق، ليبلغ الأربعين من عمره (١٩٤٦م).. فيقترن بالفرنسية النورماندية (جينيت اليبوي) وينجب منها غلامين.. لتمضي به الحياة في باريس، إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.. حيث تم تعيينه (أستاذاً للغات والحضارات الأفريقية) في (المدرسة الوطنية الفرنسية)، لينشئ عام ١٩٥٧م حزبه السياسي الأول: (حزب المؤتمر الأفريقي). والذي أصبح (أمينه)، لكن حظوظه السياسية لم تأخذ فرصتها الحقيقية.. إلا مع عودة الزعيم الفرنسي الراحل «شارل ديجول» إلى الحكم عام ١٩٥٨م بـ (فكره) الخلاق ورؤاه السياسية الحضارية والإنسانية، حيث أبدل علاقة (فرنسا) بـ(مستعمراتها) الأفريقية.. من الهيمنة المباشرة وإلغاء الهوية الوطنية.. إلى (رابطة فرنسية) معها و(حكم ذاتي) للشعوب

القادرة عليه.. وقد كان في مقدمتها: «مالي» و«السنغال».. اللتان سرعان ما طورتا حكمهما الذاتي بإلهامات (سينغور) إلى «وحدة فيدرالية» بينهما بعد استقلالهما عام (١٩٥٨م).. تحت مسمى (السودان الفرنسي)، إلا أنه لم يُقدر لهذه (الوحدة) الاستمرار بأكثر من عامين.. ليتم الإعلان عن انفصالهما واستقلال كل من الجمهوريتين تباعاً في أغسطس من عام ١٩٦٠م، حيث جرت أول انتخابات في جمهورية السنغال.. حملت (أب الاستقلال) السنغالي (سينغور)، المثقف والشاعر والأديب والسياسي إلى سدة الحكم.. كـ (أول) رئيس لجمهورية السنغال..!

* * *

ومع نجاحاته الثقافية كـ (شاعر) سنغالي متفرد.. يكتب بـ(الفرنسية) ويدخل إلى عالمها حشداً من المفردات السنغالية، وهو يتفنى في أشعاره على أنغام الطبلة الأفريقية الشهيرة الـ (ندوندو) كما كان يتفنى شعراؤنا القدماء على أنغام خطى الجمال في الصحراء (البحر البسيط).. والتي كانت تمضي في خط مواز مع نجاحاته السياسية في السنغال وبين أبنائه، كان العالم يقلده عام ١٩٦٨م.. جائزة (نوبل للسلام) بعد عامين من احتجابها (٦٦ و٦٧)، و(فرنسا) تقدم له بعد عام آخر (ديسمبر ١٩٦٩م).. مقعد العضوية في أعظم أكاديمياتها (الأكاديمية الفرنسية للدراسات الإنسانية والسياسية)، بينما أخذ المنصفون من السنغاليين يعيدون انتخابه.. ثانية.. وثالثة.. وهو (المسيحي) الكاثوليكي وسط غالبية سنغالية مسلمة تتجاوز التسعين بالمائة.؟!

لقد غدا (سينغور) بثقافته العريضة والعميقة، وخبراته السياسية والإدارية.. وسماحته الملفتة النادرة بين المتشددين من الجانبين أحد حكماء أفريقيا ومرجعيتها في حوار الحضارات والثقافات، ليفاجئ (سينغور) العالم كله.. بـ (استقالته) الطوعية عن (الرئاسة).. في آخر يوم من أيام عام ١٩٨٠م، في سابقة لم يعرفها العالم الأول.. فضلاً عن العالم الثاني أو الثالث، وبصورة أقرب إلى (الخرافة) منها إلى الحقيقة.. عندما قال في آخر سطر من سطور رسالة استقالته إلى (البرلمان) السنغالي: (..آملاً أن تقبلوا قسَم السيد عبدو ديوف رئيس الوزراء الحالي الذي سيحل مكاني)!! ليدوي خبر (خلافته).. وهو يغطي على خبر (استقالته)..؟!

فمن يتصور أن رئيساً منتخباً في العالم الثالث يحظى بكل ما كان يحظى به (سينغور) من تقدير وإكبار عالميين، ومحبة من أبناء شعبه.. يتخلى طواعية عن منصبه.. ويقدمه هدية لرئيس وزرائه (المسلم)؟! ولكن ذلك هو (سينغور) الذي (جمع الأدب بمفهومه النبيل.. إلى جانب السياسة بمفهومها الأنبل، وقلما التقى هذا بذاك في قلب رجل واحد.. لكنهما اجتمعا في هذه الأرض الأفريقية التي عانت كثيراً من الجهل.. عدو الأدب، ومن الاستبداد أعدى أعداء السياسة النبيلة)! كما قالت مقدمة احتفالية (مرور مائة عام على ولادة سينغور) التي أقامتها (الأكاديمية الفرنسية الباريسية) أشهر أكاديميات العالم وأعظمها قيمة ثقافية وحضارية.. بعد أن استقبلته عضواً بها منذ عام ١٩٨٤م.

لقد كان معزياً.. أن لا تذهب سابقة (سينغور) في الاستقالة هباءً، فقد تبعه (عبدالرحمن سوار الذهب) في استقالته عن رئاسة السودان.. كما تبعه فيما بعد (جون دي كلارك) الأبيض باستقالته عن رئاسة دولة (جنوب أفريقيا).. وتسليمها إلى ابن الأرض (الأسود) نيلسون مانديلا.. ليكون ذلك من بين أعظم الدروس التي خلفها (سينغور) وتركتها القارة السوداء (أفريقيا) للعالم.. حتى ليصح القبول ساعتها بقول (سينغور) في (نشيد الأناشيد) الذي أعاد كتابته والحبيب الأسود يقول لحبيبته السوداء: (لأنك سوداء.. أنت جميلة)..!

* * *

في تقاعده الاختياري السياسي والشاعري النبيل.. لم تتركه السياسة ولا حياتها، فقد برزت مع عودة (الديجولية) إلى الحكم بوصول الرئيس جاك شيراك إلى قصر (الإليزيه).. فكرة العناية بـ (الفرنسية) وآدابها وثقافتها والمتحدثين بلسانها، لتتبلور في تأسيس (حركة فرنكفونية) ذات بُعد ثقافي، وسياسي «مرحب» به من قبل كل من يقاومون (أمركة) العالم من المتحدثين بالفرنسية ومن غيرهم.. بـ (مقر) و(أمين) لها.. فكان أن اختارت القاهرة (مقراً)، والدكتور بطرس غالي (أميناً)، وكان الأحق بمقرها (داكار) والأجدر بأمانتها (سينغور).. لولا بُعد السنغال الجغرافي على الشاطئ الغربي لأفريقيا، وعدم توسطها بين من يتحدثون (الفرنسية) في غرب وجنوب وشرق آسيا ومتوسطها، لكن مكانة (سينغور) وتاريخه وعشقه للفرنسية.. كانت تنتصر له ليتم

انتخابه بالإجماع (نائباً) للرئيس.. ليكون (فتى أفريقيا): النجمة السوداء.. التي ترصع بياض الفرنكفونية!

لقد كان (سينغور).. عظيماً بكل (تاريخه).. متفرّداً بـ(أعماله).. كبيراً بـ (إنجازاته) تحت رايات الثقافة والمعرفة والإبداع وحوار الحضارات والثقافات.. ليكون مكانه في الصدارة بين (شموس) القرن العشرين ونجومه.

* * *

فعندما مات (عام ٢٠٠١م) فوق كل تلك التلال من الأمجاد التي صنعها.. كان العالم يبكيه وهو يردد خلفه قصيدته الشهيرة (ليلة ليلاء).. ويغني:

(ها هو الليل

صياح وغضب

الليل

جلاد النائمين المتيقظين

والشهداء الذين يحترقون فوق أسرة مثلهم العليا)!! وكما كانت هي حال وحياة (سينغور) نفسه..!!